السلوك

تعريفه . علاقته بالخلق . نشأته وتطوره

يجوع الحيوان ، أو يظمأ ، فماذا يفعل ؟

إنه يهجم على الطعام ، أوعلى الماء بغريزته ، فهى التى تدفعه لأن يأكل ، وهى التى تدفعه لأن يشرب ، وهى التى تدفعه لأن « يتزوج » حتى فى الشارع إذا وجد « الفرصة » .

إن الحيوان يتحرك بفعل الغريزة ، فقط من غير أن يتصور غاية وإن كان يرمى إليها : تريده أن يمتنع عن الأكل إذا وجده ، ولكنه لا يريد ، وتريده ألا يسرع إلى الماء خوفاً عليه ، ولكنه لا يريد ، وقد لا يريد جمع من الناس بعضهم ألا « يتزوج » حيوان فى « الشارع » ، ولكنه لا يريد إلا أن يقضى « حاجته » .

فالحيوان يتحرك بفعل الغريزة وحدها . أما أنت أيها الإنسان فأنك تتحرك بالغريزة ، والعقل معاً . تجوع ، أو تظمأ ، فتدفعك الغريزة إلى أن تأكل ، أو تشرب ، ولكنك تمتنع إذا لم تهيء لك الظروف ، والأسباب أن تأكل ، أو تشرب ، أو تتزوج ، كما يأكل ، أو يشرب ، أو يتزوج ، الإنسان . وأنت مع هذا ترمى إلى غاية معينة مرغوبة لك هى أن تحفظ ذاتك ، أو تحفظ نوعك : فأنت تتصور الغاية التى ترمى إليها ، وتشعر بلذتها إذا حصلت عليها ، أما الحيوان وإن كانت له غاية إلا أنه لا يشعر بها ، ولا يفكر فيها .

ولقد اصطلح الأخلاقيون على أن يقصروا كلمة « السلوك » على أفعال الإنسان الظاهرة كما اصطلحوا على قصر كلمة « أخلاق » على أفعاله الباطنة .

فالسلوك إذن : هو : « أعمـــال الإنسان الارادية المتجهة نحو غاية معينة مقصودة » .

وهذا التعريف يمنع — على ضوء ما تقدم — ان يدخل فيه أعمال « الحيوان » لأنه وان كان « يتصور الغاية » إلا إنه لا يشعر بها ، ولا يفكر فيها .

ويمنع أيضاً أن تدخل فيه أعمال « الانسان » التى لا يتوفر فيها شرط « الفعل الخلقى » وهو : « أن يصدر عن إرادة حرة » . وبهذا يتميز العاقل على غير العاقل ، والعامى على غير العامى ، والسكران ، أو المجنون على غيرهما . فأذا لم يكن الفعل مراداً أى تأمر به الارادة ، أو لم تكن هناك إرادة لتأمر به وتنهى عنه ، فلا وجه للحكم على الفعل .

مثلا : إذا هاج البحر وحطم السفن لايُعد فعله هذا سلوكا يستوجب الحكم عليه لأنه ليس هناك إرادة صادرة من ذاتية بشرية أذنت بالفعل . ولذلك كان «زركسيس» الأشورى أحمق حين أمر بجلد البحر لأنه حطم له ما كان جيشه مزمعا أن يعبر عليه من « آسيا » إلى « أوربا » فى مضيق « البوسفور » [1] .

كذلك ليس لنا أن نحكم على سطو الوحوش الضارية على الماشية لأن فعلها هذا صـــادر عن غريزة بلا إرادة ، وليس لنا كذلك أن نحكم على « مكره » ومن فى حكمه .

---

(١) علم أدب النفس للأستاذ « تقولا الحداد » ص ٨٩ .

وعلى الجملة لا يصح أن نحكم إلا على « السلوك » الذى هو فعل موجه بإرادة حرة .

وإذا كان « السلوك » هو صورة فعل الإنسان الظاهرة ، وكانت « الأخلاق » هى الصورة « الباطنة » فما هى علاقة « الصورة الظاهرة » بالصورة الباطنة أو ما هى علاقة السلوك بالأخلاق ؟ هل هى علاقة الدال بالمدلول ؟ على معنى أنا نحكم عليك بفعلك ، فأن كان حسنا ، قلنا : إن أخلاقك حسنة . وإن كان سيئا . قلنا : إن أخلاقك سيئة .

إن قلنا : بهذا . يرد علينا أن من الناس من هم على « أخلاق » طيبة غير أن ظروفهم التى تحيط بهم لا تمكنهم من أن يكونوا على « سلوك » حسن بالفعل . لضيق ذات اليد عندما يدعو داعى الإحسان مثلا ، أو لغير ضيق ذات اليد عندما تدعو فضيلة أخرى مما تراه فى كثير من الأحيان .

وعلى العكس من ذلك قد ترى شخصا لاتعرفه « الأخلاق » أبداً لا فى قليل ، ولا فى كثير ، ولكنه فى بعض الأوقات يجود بمقدار مايجود به عشرات من الناس : يجود بذلك « رياء » أو « نفاقاً » أو « ملقا » لحاجة فى نفس يعقوب قضاها . فهل يعد هذا على أخلاق طيبة ، وذلك على أخلاق سيئة ؟ لا

إذن . العلاقة بين السلوك والأخلاق هى علاقة الدال بالمدلول . لكن : ليس ذلك دائماً . لأن الأمر يتوقف مع ذلك على الظروف التى تحيط بك .

فالسلوك يختلف باختلاف الظروف ، فأحوالك الشخصية الذاتية

من : علم ، وجهل ، وغنى ، وفقر ، وقوة ، وضعف ، وصحة ، واعتلال ، كل هذه تتدخل فى سلوكك .

فأنت كريم ، ولكنك لا تستطيع أن تتبرع لمشروع ، وقد طلب منك ، لضيق ذات اليد .

وأنت شجاع ، ولكنك لا تستطيع أن تلبى داعى الوطن ، فتذهب مع من يذهب إلى الدفاع عنه لاعتلال فى صحتك .

وأنت عالم نحرير ، ومرب قدير ، ولكنك لا تستطيع أن تضرب بسهم فى « محو الأمية » لأنه ليس عندك من « الفراع » إلا ما به « تستنجم » و « إن لبدنك عليك حقاً » .

وهذه الظروف التى على ضوئها « يتكيف » سلوكك منها : ما هو وقتى عارض ، ومنها ما هو عادى ثابت : فعلمك عادى ثابت ، وغناك وقتى عارض ، أو من شأنه أن يكون كذلك . ومعرفتك للسباحة ، عادى ثابت ، وضعفك وقتى عارض . وهكذا يتوقف « السلوك » الأدبى على « الظروف » التى تحيط بك أيا كان نوعها .

نشأة السلوك وتطوره

نحدد الموضوع ونرسم خطوطه قبل أن نخوض فى تفاصيله .

هل المقصود من هذا الموضوع أن نذكر شيئاً عن تاريخ « الغرائز » ؟ إن قيل هذا كان الموضوع ليس خاصاً بالسلوك الإنسانى ، بل عاماً يشمل الإنسن والحيوان لأن الغريزة مصدر حركة عند الإنسان وابن عمه الحيوان . أو هل المراد أن نأتى بشىء عن تاريخ الغريزة الخاصة بالإنسان والتى لولاها

لبقى حيواناً وهى « الاستعداد للتعلم » ؟ — سميت هذه غريزة وإن كانت فى الأصل عادة اقتضتها العوامل البيئية من جهة والعوامل الاجتماعية من جهة أخرى لأن العادة متى تكررت وانتقلت من جيل إلى جيل أصبحت بعد عديد من الأجيال غريزة - وإن قلنا بهذا أيضاً أهملنا جانباً من أعمال الإنسان التى تدفع إليها غريزة هى عند الحيوان والإنسان إلا أنها ترقت عند الإنسان وتأنقت بتدريب العقل . على أنى لماذا أذهب إلى كل هذا «التشفيف» وقد حددنا السلوك الذى نتكلم عن نشأته وتطوره بأنه : «أعمال الإنسان الإرادية المتجهة نحو غاية معينة مقصودة » .

فالمراد إذن من هذا الموضوع هو أن نعرف شيئاً عن هذه الأعمال — أعمال الإنسان الإرادية ... — : كيف نشأت وتطورت حتى وصلت إلى هذه القواعد العامة التى أجمعت عليها الأذواق ، وتوافرت على الأخذ بها الطبقات المهذبة فى الأمم الراقية .

ولأجل أن نعرف شيئاً عن نشأة السلوك الإنسانى لا بد أن نتساءل :

هل « بزرة السلوك كانت فى أصل الإنسان الأول ؟ على معنى أن الغرائز كانت موجودة فى أصل هذا الإنسان وورثنا عنه ، أو هى عادات اكتسبها الإنسان على مر الأحيال والقرون ؟ » .

بديهى أن نقول : إن الغرائز مولودة مع الإنسان الأول ورثها عن أصله وكل ما هنالك أن هذه الغرائز تهذبت ، وترقت ، وتقدمت فى الإنسان وبقيت على أصلها عند الحيوان .

يقول السير « أرثر كيت » فى كتاب « تاريخ العالم » الذى نشره

بالإنجليزية السير « جون . ا . هامرتين » وترجمته وزارة المعارف العمومية ص ٣٢٧ تحت عنوان « الأصل الأول لروح القبيله » يقول :

« لاحاجة بنا إلى الوقوف لاستقراء الوسيلة التى تم بها تأصل المشاعر الأساسية فى حياة الإنسان العقلية : مشاعر العطف والحب . والبغض والحسد . والتنافس والتفاخر ، فأذا كان فى وسعنا أن نعتقد ، أن فى الطبيعة قوى تستطيع أن تخلق أداة جميلة مثل « العين » و « الأذن » فكيف نتردد فى القول بأن خواص العقل الأنسانى الأجتماعية التى تنظم شئون الأنسان قد نشأت على هذا المتوال . . . وكان من أشد الرغبات تأصلا فى نفس الانسان رغبته الملحه فى أن يفوز بحسن ظن جيرانه فيه ، وكان يبذل فى هذا السبيل كل ما فى وسعه من جهد ، وهذا الشعور القبلى الطبيعى المتأصل فى النفس البشرية يعمل على الدوام لخير القبيله . . . وليس ثمة مايحير الفلاسفة أكثر مما فى طبيعة الإنسان من متناقضات : فالحب والبغض والقسوة والرحمة ، والأمل والخوف ، والشجاعة والجبن ترى كلها فى الفرد الواحد ، ونرى الإيمان والثقة المتبادلة يتعاقبان فى النفس الواحدة مع الريبة والخيانه ، ونرى الغيبة والأثره الكامله تظهران فى أثر الإحسان وكرم السجايا .

وفى وسع المرء أن يكون فى لحظة ما مؤدبا دمث الأخلاق ، ولكن فى وسعه أيضا أن ينقلب فظا وقحا فى لحظة أخرى ، وتراه فى الوقت عينه مُصَدِّقا ومرتابا كما تراه فى ظروف خاصة يقتل ، ويسطو ، ويسرق ، ويخرج على كل الوصايا العشر ، وترى هذا الإنسان نفسه فى ظروف أخرى

يهب للعوز والفقير ، ويضحى بحياته ليثأر لعدوان وقع عليه .

وفى وسعنا أن نرى كيف اكتسب الإنسان هذه الطبيعة المزدوجة إذا درسنا الأحوال التى سار فيها تطور الإنسان من ماضيه إلى حاضره ، وهى أحوال لانزال نشاهدها ، ونستطيع دراستها فى نواح قاصية من الأرض ، وقد نشأ نصفها الطيب ليستخدمه فيما بينه وبين جماعته ، أو قبيلته كما نشأ نصفها الخبيث ليستخدمه فى خارج قبيلته . فالنصف الطيب يُقوى القبيله من الداخل ، والنصف الخبيث يقويها من الخارج .

وعلى هذا تدرج الانسان فى سلوكه من الغريزة إلى العمل لخير القبيله .

يستخدم ما فى طبيعته من خير داخلها ، وما فى طبيعته من شر خارجها يعدل داخلها ، ويظلم خارجها . يرحم أبناءها ويقسو على غيرهم ، وقد يضحى بنفسه فى سبيل قبيلته ، فى الوقت الذى ينجو بنفسه إذا ما أحاط بغيرها شر ، وهكذا كانت قواعد السلوك ليست عامة ، بل هى خاصة . تدور فى دائرة ضيقه .

ولما تآلفت القبائل ، وتوحدت ، وأصبحت أمما أخذت دائرة قواعد السلوك تتسع شيئا فشيئا حتى أصبح للسلوك الإنسانى « قواعد عامة ثابتة صالحة لكل زمان ومكان » فمثلا كان العربى يفهم من هذه القاعدة « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » يفهم منها أن ينحاز إلى أخيه فى قبيلته سواء أكان الحق بجانبه أم بغير جانبه ، فلما جاء النبى صلوات الله عليه فسَّر لهم هذه القاعدة على نحو لا يتمشى إلا مع « الحق والعدل » حيث فسر « نصر الظالم » بأن ترده عن ظلمه . وهكذا أخذت تتسع دائرة السلوك حتى وصلت إلى

هذه القاعدة الذهبية التى لا يستطيع عقل أن يصل إلى أحسن منها وهى : « لا تفعل بغيرك مالا تحب أن يفعل بك » .

يقول « ول ديورانت » فى كتابه قصة الحضارة[1] إن السلوك الإنسانى عرف النص على هذه القاعدة قبل «هلل» بأربعة قرون ، وقبل المسيح بخمسه

ويقول « كنفوشيوس » « ٥٥١ ق م » : « الرجل الأعلى يتحرك بحيث تكون حركاته فى جميع الأجيال طريقا عاما ، ويكون سلوكه بحيث تتخذه جميع الأجيال قانونا عاما ، ويتكلم بحيث تكون ألفاظه فى جميع الأجيال مقاييس عامة لقيم الألفاظ » .

ولو قارنت قول « كانت » : « لتكن إرادتك بحيث يمكن أن تكون القاعدة التى تسير عليها فى أعمالك قانونا عاما شاملا » لو قارنت قوله هذا بقول « كنفوشيوس » حكيم « الصين » المتقدم فهل ترى فرقا ؟ !!!

وقد يكون من الحسن هنا بهذه المناسبة أن أذكر لك دستور السلوك للرجل الأعلى كما وضعه « كنفوشيوس » يقول :

« يضع الرجل الأعلى نصب عينيه تسعة أمور لاينفك يُقلّبها فى فكره . فأما من حيث عيناه فهو يحرص على أن يرى بوضوح ؛ وأما من حيث وجهه فهو يحرص على أن يكون بشوشا ظريفا ؛ وأما من حيث سلوكه فهو يحرص على أن يكون وقورا ؛ وفى حديثه يحرص على أن يكون مخلصا ؛ وفى تصريف شئون عمله يحرص أن يبذل فيه عنايته ، وأن يبعث الاحترام فيمن معه ؛ وفى الأمور التى يَشُك فيها يحرص على أن

---

[1] الجزء الرابع ص ٥٨ ترجمة الأستاذ محمد بدران .

يسأل غيره من الناس ؛ وإذا غضب فكر فيما قد يجره عليه غضبه من الصعاب ، وإذا لاحت له المكاسب فكر فى العدالة والاستقامه » .

فهل لك أن تكيف سلوكك على هذا الدستور ؟

ولو رجعنا بعد هذا ننظر إلى واقع الأمر على مسرح هذه الحياة بعد أن رأينا أن السلوك الانسانى قد مشى فى طريقه يتعثر آنا ، وينهض أخرى حتى وصل إلى قواعد عامة أجمعت عليها الأذواق ، وتوافرت على الأخذ بها الطبقات المهذبه فى الأمم الراقية فأنا نرى أن الأحقاد التى تقوم بين الدول فى هذه الأيام تعمل ما كانت تعمل العداوات القديمة بين القبائل من تفرقه وانفصال .

إن روح القبيلة وآثارها لا تزال واضحة جليه بين الدول بعضها مع بعض ، بل بين الأحزاب والطوائف فى الأمة الواحدة ، وترى ذلك أظهر ما يكون بين السياسيين حيث ينظمون أنفسهم أحزابا متنافسه : كل رأى أو عمل يفوز بتأييد الحزب الذى تنتمى إليه فهو الرأى السديد والعمل الصائب ، وكل رأى أو عمل لايفوز إلا بتأييد الحزب المعارض فهو رأى خطأ ، وعمل شاذ . ألست ترى هذا حتى فى أرقى الأمم الآن . ؟

إن السلوك قد وصل نظريا إلى أرقى القواعد الانسانية ولكنه عمليا لايزال فى حاجة ماسة إلى عناية كبرى حتى يصل إلى درجة « الإنسانية »

يظهر أن الانسان كلما صعد فى سلم الحضاره ، والمدنية إزداد اتجاها إلى « الحيوانية » ويكفى أن ترى أن الانسان قد وصل إلى تفتيت « الذره » ولكنه بدل أن يستعملها فى الخير يستعملها فى إهلاك الناس ، وبعث

الخوف فى نفوس بنى آدم ، وإن الانسان قد وصل إلى « الرادار » ولكنه بدل أن يستعمله فى الخير يُرهب به الناس ويستبقيه إلى يوم « الشر » . وإن الانسان قد وصل إلى « الراديو » ولكنه بدل أن يقصره على بعث أسباب الرحمة يستغله فى « التفرقه » وإشاعة « الذعر » بين بنى الإنسان .

إن السلوك الانسانى ينبغى أن يقوم على تطبيق نوازع الفضيله على الحياة اليومية للناس ، فأن السبب الأساسى لهذه « الأزمات » الاقتصادية وغير الاقتصادية يرجع أولا وقبل كل شىء إلى الأخلاق ، ولوا اتبعت فى السلوك أحكام « الأمانة » المطلقة ، و « الصدق » وحب الخير لذهب أكثر المشاكل ولساد الرخاء الناس .

وخير ما يساعد على بعث السلوك الحسن اتباع تعاليم الدين فهى خير ما يهديك إلى طريق الخير ، وخير ما يُوصلك إلى الحياة الطيبة ، وصدق الله العظيم : « مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً »